من صميم الحياة :

الخـــادمة . . . !

هذه قصة (المشكلة) التي قلما تخلو منها دار في مصر والشام . . . (ع)

للأستاذ علي الطنطاوي

قال : إن لديّ قصة أحب أن أقصها عليك ، وإنك لتعلم أني لست ممن يؤلف القصص ، ولست ممن يحسن الاستعارة والتشبيه وسائر أبواب المجاز التي تعلمنا أسماءها في المدرسة ، فلا تأمل أن تسمع مني قصة أدبية معقودة من وسطها بعقدة فنية ، مردودة الأول على الآخر ، فيها الصورة النادرة ، والفكرة المبتكرة ، والأسلوب البارع ، فليس عندي من ذلك شيء ، وإنما هي واقعة أرويها كما رأيتها وسمعتها ، وإن فيها لدرساً نافعاً لمن يرى الحياة مدرسة ، فهو يدأب على الاستفادة منها والانتفاع بها ، فهل تحب أن تسمعها ؟

قلت : نعم

قال : لا أدري من أين أبدأ القصة لتجيء محكمة الوضع يرضى عنها أهل الأدب ، فدعني أبدأها من نصفها ، فما لك في أولها كبير نفع ، وإن أولها ليلخص مع ذلك في كلمة ، هي أن لي أقرباء إخوة ثلاثة شباباً أعزاباً يقيمون مع أمهم العجوز التي ربتهم وقامت عليهم منذ تركهم لها أبوهم أيتاماً صغاراً ، حتى إذا كبّت وهرمت ، وعجزت عن خدمة الدار ، ذهبوا يفتشون لها عن خادم تعينها ، ولو فتشوا عن ثلاث زوجات لهم لكان ذلك أهون عليهم وأدنى إليهم ، فلما طال التفتيش وزادت الحاجة ، وجدوا بنتاً من (التوانى) فقنعوا بها ، وأنت تعلم أن (التوانى) قرية منزوية في حدور (القلمون) الأدنى ، مما يلي (القطيفة) ضائعة بين تلك الأودية المقفرة والجبال ، وأن أهلها من أفذر القرويين وأجفاهم وأبعدهم عن المدنية ، على صحة فيهم وجمال . وكانت بنتاً — كما يقولون — ذكية ، فسرعان ما ألفتهم وألفوها ، وأقامت فيهم سنين طويلة ما أنكروا منها شيئاً ، ولم أرها أبداً على كثرة ما كنت أتردد على الدار ، حتى كان اليوم الذي جملته مبدأ قصتي هذه ...

* * *

وكنت أزور أقرباني هؤلاء ، فدعوني إلى الشاي ، فإذا هي تدخل فتقدمه إليّ ، وإذا فتاة في نحو السادسة عشرة قد تخمرت بخمار أبيض لفّته من فوق رأسها إلى ما تحت ذقنها ، فعلّ القاءه إلى الصلاة ، فسترت به شعرها وجيدها ، وبدا منه وجهها مدوّر أبيض موردّاً يطفح بالصحة والصبوة ، ويُشعُّ منه السحر والدلال ، وكانت تلبس ثوباً قصيراً لا يكاد يعلو عن الركبتين يكشف عن ساقين بضّتين غضّتين ممتلئتين في غير سمن ممشوقتين في غير هزال ، مصبوبتين صبّ التمثال ، وفوق الثوب صدار من وشي رقيق كالذي تتخذه أنيقات الخادمات ، قد شد شداً ، فهو يُبرز من ورائه نهدين راسخين ، يلقيان عليه ظلالاً خفيفاً لا يعرف موقعه من النفس إلا من قرأ سطور النهود في صدور العذارى ... وكانت تحمل الشاي بأكف كأنها خلقت بلا عظام ، وكان جسمها ينبض بالعاطفة التي تلين أقسى الرجال وتستخرج الصبوة من قرارات النفوس فتظهرها ، ولو قيدتها قيود من الخلق المتين ، ولو غطّتها ستور من الهمّ الدفين ، ولو أنساها صاحبها علمٌ يشتغل به ، أو مال يسعى وراءه ، وأن الصبوة قد ماتت ، لردّها هذا الجمال المطبوع حيّة ... أي عيناها ، فدعني بالله من وصفهما ، فما أدري ما لونهما وما شكلهما ، فإن لهما سرّاً يشغلك عن التفكير في وصفهما ... إنهما تروعانك فتبقى معلقاً بهما ، فإذا حاولت أن تضبط نفسك وتعود إلى ما كنت فيه ، لم تشعر إلا وأنت قد عدت إليهما ... إن فيهما مغناطيس يجذب الأبصار والقلوب ... !

فلما خرجت ، قلت : أهذه هي الخادم القروية التي جئتم بها من (التوانى) ؟

قالوا : نعم .

قلت : فأخرجوها من هذه الدار ، فإنها أخطر من البارود فضحكوا وعدّوها نكتة ...

* * *

وعدت مرة أخرى ، فإذا هي بلا خمار ، فسألتها عنه ، فقالت

— ويا ليتها لم تقل ، فما كنت أدري أن لها مع جمالها هذا الصوت الذي يرنّ كأجراس الفضة في مواكب الأحلام . . أو كرنّات الميدان في خيال متذكر ليلة غرام — قالت :

— إني قد استثقلته فألقيته أمام الأقرباء ، وأنت منهم (مُشّ هيك) ؟

وشفعتها ببسمة من فيها ، وغمزة من مقلتيها ، وهزة من كتفيها ... فما هذه البنت ؟ ! ومن أين لها هذا كله ؟ ! وحياتك لو أنها ربيت في مسارح (مونمارتر) في باريز لكان هذا كثيراً منها ، فكيف تعلمته في مرابل (التوانى) ؟ !

وعبستُ فما أحببت أن أوغل معها في هذا الطريق ، فولّت ترقص رقصاً لا تمشي مشياً ، وشعرها الذهبي حقاً لا تشبيهاً ، المنشور على كتفيها وظهرها ، البالغ حقويها يرقص معها !

وعدت بعد ذلك ، فإذا هي قد جزّت شعرها على (الودة) ، وأمرّت يد الزينة على وجه ما يحتاج إلى زينة ، وطرحت صدارها ، ولبست ثياب فتاة غنية مدللة ، لا ثياب خادم ، فانفردت بأكبر الأخوة من أقربائي فقلت له :

— إنك أنت واخوتك من أمتن الناس خلقاً وأقومهم سيرة ، ولكن هذه البنت تفتن والله العابد ، وتستزل الزاهد ، وتحرك الشيخ الفاني .. وإنها لتسحر بكل نظرة وكل حركة ، ويكاد جسمها يتفجر إغراء بالمعصية ، وإذا أنتم أبقيتموها في هذه الدار فما أظن الأمر ينتهي بسلام !

واستجاب لما قلته له ، ورآه حقاً ، فأخرجها وأدخل مكانها زوجة صالحة ... !

* * *

قال : ودخلت البنت داراً أخرى ، دار قوم مترفين منعّمين لا يسألون عن المال أين ذهب ، وكانوا كلهم ثلاثة : أبا تاجراً جاهلا ، همه عمله في النهار ، وسهراته في الليل ، وأما شغلها ثيابها وزياراتها واستقبالاتها ، وولداً شاباً في العشرين طالباً في الجامعة صاحب جد ودراسة وخلق ودين ، غير أنه كان — ككل الصالحين من لداته — يطوي صدره على مثل البارود المحبوس في القنبلة إذا طار منها مسمار الأمان ، أو صدمتها صدمة فرجّتها تمزقت ومزقت من حولها ! وكانت الصدمة لها هذه الخادمة اللعوب !

وبدأت من اليوم تولي اهتمامها صاحبنا الذي أسميه (الشاب) كراهة أن أصرح باسمه ، وتنسج حوله خيوطها .. فإذا ناداها لحاجة له — ولم يكن له بدّ من أن يناديها — قفزت قفزة الغزال وأقبلت تحفّ بها شياطين الشهوة ... فتراه منصرفاً عنها ، فتبسم له ، وتسأله عما يريده ، بصوت يقطر فتونا ، وتسلط عليه من عينيها مغناطيس مكهرب يأذيب الأثاث ، ولو كانت من صفا الجلمود ، وإن أعانته في رفع نضد ، أو تسوية كرسي ، أو ناولته شيئا ، دنت الملعونة منه حتى لامست بهذا الجسم اللدن الدافىء المكهرب ، جسمه القويّ الصّرِمَ ... إلى (اللحم) ! ... أو قرّبت وجهها الفتان من وجهه حتى ليحسّ أسخن أنفاسها ، ويشم رائحة جسمها ، وإنها لأفتن من كل عطور الدنيا وطيبها ، وأين العطر من ريح جسم المرأة ؟ أو تتعمد حركة تزيح ثوبها القصير لحظة عن بياض فخذيها . وكان المسكين بشرا ، اجتمعت عليه صبوة الحب في نفسه ، وإغراء الجمال في خادمته ... وحماقة أبويه اللذين جاءاه بها وغفلا عنه وعنها ، وصارا يتركانه معها وحيدين في الدار طول النهار ، حتى لقد بمثاها مرة تناوله الصابون في الحمام ... وثار في أول الأمر عليها ، وأعرض عنها ، ثم أحسّ أن سمّها سرى في جسده وروحه ، فاستنفر آخر قوى الفضيلة في نفسه وألحّ على أبويه في إخراجها من المنزل ، فأبيا ، وكيف يفرطان فيها وقد وجداها بعد طول البحث ، وكبير العناء ؟ وهل تدع (الستّ) زياراتها وسينماها ، وتشتغل هي : بالطبخ والكنس لمجرد أن البنت الخادمة جميلة و (دلّوعة) ويخشى منها ؟ كلام فارغ !

هكذا كان يفكر الأبوان المحترمان .. وضُربا بالعمى عن حقيقة لا تخفى على عاقل ، هي أن الرجل والمرأة حيثما التقيا وكيفما اجتمعا : معلماً وتلميذة ، وطبيبا وممرضة ، ومديرا وسكرتيرة ، وشيخاً ومريدة ، فإنهما يبقيان رجلا وامرأة ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما خلا رجل بامرأة (هكذا ، على الاطلاق) إلا كان الشيطان ثالثهما !

ومرض الشاب ، وعجز عن الاحتمال ... فكانت الخادمة هي التي تقوم على خدمته ، وتصرم الليل كله ساهرة عليه ، وتبدل ثيابه فتراه كما هو وتستبيح بالنظر واللمس كل إصبع في جسده ، وهو لا يحسّ بها ! حتى إذا تماثل للشفاء ، ومرّ في طريق النقاهة

رآها إلى جانبه ، وكان المرض قد أضعف عزمه وأوهن إرادته ، فانكسر السد وطغى الحب ... وفى ليلة كان فيها النعاس قد نال منها ، حلف عليها إلا أن تستريح وتنام ، ولم يكن فى الغرفة سرير ، فاندست معه فى سريره ... وكان هذا أكثر من أن تحتمله أعصاب رجل فى الدنيا ، فطار النعاس ، وكانت النتيجة المحتومة لهذه المقدمات ! ودخلت (الست) فى الصباح ، فرأت الخادمة بين ذراعى ابنها ! !

صحت البنت من سكرتها ، وصحا الأهلون وأرادوا إصلاح ما فسد ، وهيهات ! إن الماء قد انسفح على الرمل فمن يردّ الماء المسفوح ؟ وعود الكبريت قد احترق فمن يعيد العود المحروق ؟ وعرض البنت قد مزق فمن يرتق العرض الممزق ؟ لا أحد !

ووثبوا يفتشون كالمجانين عن طريق للخلاص ، وأقبل الشيطان مرة ثانية ، وكانت المؤامرة ، وانجلت عن ستر هذه الجناية بجناية أخرى ، هى أن ترد البنت إلى أبيها الذى يطلبها ليزوجها من ابن عمها ، وقيل : وماذا تصنع إذا هى لم تقبل ؟

وكان الفصل الآخر من المأساة وإنى سأختصره اختصارا :

هذه البنت الحلوة المسهترة التى ذاقت طراوة الحضارة وليانها وحريتها وفسوقها وعريها ، عادت إلى القرية المنقطعة فى أودية (القلمون) الأدنى وجباله ، لتعيش حياة قروية قذرة صعبة ، ولكنها طاهرة مستورة مقيدة ، لتلبس الملاءة الزرقاء الشاملة به (الروب) الذى لا يستر ربع الجسد ، والسراويل البالغ الكعبين بعد (الكلسون) الذى لا يتجاوز طوله الإصبعين ، وتشتغل فى الحقل بالأكف التى كأنها حلقت بلا عظام والأظافر ذات (المانيكور) ، وتأكل بعد (الكاتو) والفراني[1] خبز الشعير ، وتعاشر بعد شباب دمشق البقر والحمير ، وتمشى إلى الإصطبلات بدل السيمات .

دبّر الأمر على عجل ، وعقد العقد ، وسيقت العروس (الشامية ...) إلى القرية ، وحسب ابن العم كأنما رأى ليلة القدر فدعا فهبطت عليه حوراء من حور الجنان ... وكان الدخول وتجسم خيال المكين فكان واقعا ، والحلم صار حقيقة ، واحتوته بين ذراعيه الخشنين ذلك الجسم الذى تتقطع عليه نفوس أبناء الأمراء حسرات و ... فإذا الثمرة مقطوفة !

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ماذا ؟ صار ابن العم فى السجن ، والبنت فى القبر وافتضح الشاب فضيحة لن ينجو من آثارها مهما عاش !

على الطنطاوى

(١) الفراني ج فرنية هى الكاتو بعينه — راجع المعاجم مادة (فرن) .

وزارة الأوقاف

تقبل العطاءات بوزارة الأوقاف « قسم الحسابات والمخازن » لغاية ظهر يوم ٢٩ / ٤ / ١٩٤٦ عن مقاولة أعمال الصيانة والتوريد والتركيبات الكهربائية لمساجد وأعيان الوزارة على اختلاف أنواعها لسنة ٤٦ و ١٩٤٧ التالية بالمناطق الآتية : —

(١) المنطقة الثانية وتشمل إدارة أوقاف اسكندرية وتفتيش المنزه

(٢) المنطقة الثالثة وتشمل تفاتيش البحيرة وقلين ودسوق

(٣) المنطقة الرابعة وتشمل تفاتيش طنطا والمنشاوى والقرشية

(٤) المنطقة الخامسة وتشمل تفاتيش القليوبية والمنوفية والشرقية

(٥) المنطقة السادسة وتشمل تفاتيش المنصورة وشاوة والمحلة

(٦) المنطقة السابعة وتشمل تفاتيش بنى سويف والفيوم وبنا والمنيا ومغاغة

(٧) المنطقة الثامنة وتشمل تفتيش أسيوط وجرجا وقنا وذلك على مقتضى قائمتى أثمان التركيبات والتوريدات الكهربائية الموجودتين بقسم الهندسة ليطلع عليهما من يشاء .

وتقدم العطاءات على النموذج المعد لذلك والذى يمكن — الحصول عليه من قسم الهندسة مجاناً

وكل عطاء تلغرافى أو كل عطاء لا يقدم معه تأمين لا يلتفت إليه

٤٠١